تتمة واستدراك على مصادر دراسة خطط بغداد في العصور العباسية

الدكتور مصطفى جواد

مجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد الثامن عشر
1389هـ -1969م

تتمة واستدراك على مصادر دراسة خطط بغداد في العصور العباسية

الدكتور مصطفى جواد

وصل إليّ المجلد الرابع عشر من مجلة مجمعنا العلمي العراقي في الاسبوع الأول من آذار هذه السنة ، فطالعته على شدة مرضي المعضل وسرني ما رأيت فيه من مقالات مفيدات ولا سيما المقالة البارعة « مصادر دراسة خطط بغداد في العصور العباسية » من مباحث الزميل الدكتور الفاضل صالح أحمد آل علي ، فانها جمة الفوائد ، وقد حدتني على أن اسطر مايكون تتمة لها واستدراكاً ، وأحسب الزميل الفاضل ينشرح صدره وترتاح نفسه لكل فائدة جديدة ، كما هو عادة العلماء والفضلاء ، فأقول :

١ — نقل الدكتور الفاضل في الصفحة ١٥ من المجلد المذكور آنفاً أن « أبا سعد السمعاني « ذيل على كتاب الخطيب البغدادي وان العماد الاصفهاني ذيل على كتاب السمعاني [١] ، وأن محب الدين محمد ابن النجار البغدادي ذيل أيضاً على كتاب الخطيب ، وأن تقي الدين محمد بن رافع المتوفى بحسب نقله سنة ٦٧٤ هـ ذيل على تاريخ ابن النجار ، وذيل على كتاب ابن النجار ايضاً أبو بكر المارستاني ، وأن ابن الساعي ذيل على تاريخ المارستاني ، وأن ابن الدبيثي ذيل على تاريخ السمعاني ، وأن ابن القطيعي ذيل على كتاب ابن الدبيثي » .

استخلص الزميل ذلك مما ذكره حاجي خليفة في مادة « تاريخ بغداد » في كتابه كشف

(١) ذكر حاجي خليفة في مادة « تاريخ بغداد » انه سماه « السيل على الذيل » وأنه في ثلاث مجلدات .

الظنون ، وفي كلام مؤلف الكشف خطأ ظاهر ينبغي تبيانه لئلا يبقى مزلة للباحثين في تواريخ بغداد ، وهو أن أبا بكر المارستاني ويسمى أيضاً ابن المارستانية ألف تاريخه قبل تأليف ابن الدبيثي لتاريخه ، وقبل تاريخ ابن النجار فلا يصح كونه ألف ذيلاً على تاريخ ابن النجار ، قال ابن الساعي في وفيات سنة ٥٩٩ : « أبو بكر عبيد الله بن علي بن نصر بن حمرة المعروف بابن المارستانية ، شيخ طلب علم الحديث واشتغل به وجدّ فيه واتّسم به وجمع وصنف ورسم كتاباً سماه (ديوان الاسلام) ذكر في خطبته انه قسمه ثلاثمائة وستين كتاباً ، فطوّل في ذلك تطويلاً يضيق العمر عنه ، لاجرم لم يتمّ [(١)] ... » . وذكر ابن أبي اصيبعة انه « عمل تاريخاً لمدينة السلام سماه (ديوان الاسلام الاعظم) وكتب منه كثيراً ولم يتمه [(٢)] » . وقال أبو شامة في ترجمته : « وصنف كتاباً سماه ديوان الاسلام في تاريخ دار السلام ، قسمه ثلاثمائة وستين كتاباً إلا انه لم يشتهر [(٣)] » ودافع عنه .

وقال ابن الدبيثي : « عبيد الله بن علي بن نصر بن حمرة (بالحاء المهملة والراء غير المعجمة) أبو بكر بن أبي الفرج المعروف بابن المارستاني ، أحد من طلب الحديث وسمعه وجمع الكتب المصنفات فيه واتسم بمعرفته ، وادعى الحفظ له وسعة الرواية (والنقل عمن لم يدركه) ولا سمع منه ، فأطلق ألسن الناس في جرحه وتكذيبه وإساءة القول في حقه ، من أهل هذه الصناعة والعلماء بها وانتسب الى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - مع معرفة الناس به وبأبيه وبعدهما عن نسب مشهور ، غير خدمة المارستان ، فكان أبواه يخدمان بالمارستان ، وتعرف أمه بالمارستانية واليها نسب ، وأما أبوه فكان يعرف بفرج احد حواشي المارستان والقوام به . لايعرف بكنيته ولا يعرف بغير ذلك ، فغيّر ابنه هذا اسمه وكنّاه بأبي الفرج وسماه علياً ، ولعل قائلاً لو قال لأبيه : أتعرف أبا الفرج علي

---

(١) الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير « ج ٩ ص ١١٢ طبعة كاتب هذه السطور وتحقيقه » .

(٢) عيون الأنباء في طبقات الاطباء « ١ : ٣٠٣ » .

(٣) ذيل كتاب الروضتين « ص ٣٤ طبعة السيد عزة العطار » .

ابن نصر التيمي ؟ كما كان ابنه عبيد الله هذا يدّعي[1] لما عرف ذلك الشخص وهو نفسه . ومن العجائب أن عبيد الله هذا روى في شيء من تأليفاته في عدة مواضع عن أبيه هذا ويقول : أخبرني والدي أبو الفرج علي بن نصر ... ويذكر حديثاً وأبوه معروف ، كان عامياً غير معروف بطلب الحديث ولا بسماعه ولا يفهم الرواية ولا كان من أهلها ... وجمع مسوّدة كتاب سماه (ديوان الاسلام الأعظم) في تاريخ بغداد فكتب منه كثيراً ولم يتممه ولا بيضه ، ووقفت منه على شيء وقد ضمنه من غرائب الشيوخ له والروايات غير قليل ولو ظهر هذا الكتاب وتم لكان من أكبر الشواهد على تخرصه[2] ... » .

وقال الصلاح الصفدي : « عبيد الله بن علي بن نصر بن حمزة بن علي بن عبيد الله أبو بكر بن أبي الفرج التيميّ المعروف بابن المارستانية ، هكذا كان يذكر نسبه ويوصله الى أبي بكر الصديق . قال محب الدين ابن النجار : ورأيت المشايخ الثقات من أصحاب الحديث وغيرهم ينكرون نسبه هذا ويقولون إن أباه وامه كانا يخدمان المرضى بالمارستان ... وادعى لأبيه سماعاً من أبي بكر محمد بن عبد الباقي وسمّعه منه ، وذلك باطل .. وجمع مجموعات من التواريخ واخبار الناس من غير طرقها من نظر فيها ظهر له من كذبه وفحشه وتهوره ما كان مخفياً عنه ... قال ياقوت : وعُني بجمع تاريخ بغداد ، أزرى فيه على الخطيب وسماه (كتاب ديوان الاسلام الاعظم) قسمه ثلاثمائة وستين كتاباً في كل كتاب اسماء توافق انسابها وطول في ذلك ، وله كتاب الحوادث ولم يتم وكتاب في الصفات ... وقد بالغ ابن الدبيثي في الطعن عليه وزاد في غلوه فيه والله اعلم بحقيقة الحال[3] » . وقال ابن النجار : « وقرأ كثيراً على المتأخرين وعلى مشايخنا وكتب بخطه وحصل الأصول ولم يقنع بذلك حتى ادعى السماع ممن لم يدركه وألحق طباقاً على الكتب بخطوط مجهولة تشهد بكذبه

(١) سقطت هذه الكلمة مني في النقل وقد وضعتها استرجاحاً ولعل الاصل « كما كان يسميه » ما أدري .

(٢) ذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثي « جزء خزانة كمبرج للصور في المجمع العلمي العراقي ، و٢٦ » .

(٣) الوافي بالوفيات « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٢٠٦٦ و ٣٠٠ » .

وتزويره ... سمعت ابا الحسن بن القطيعي يقول : سمعت ابا الفرج بن الجوزي يقول : قال لي ابو بكر ابن المارستانية مولدي في سنة إحدى واربعين وخمسمائة . بلغنا انه توفي في موضع يعرف بجرخ بند وكان راجعاً من تفليس قاصداً للأمير ابي بكر في ليلة الأحد غرة ذي الحجة سنة تسع وتسعين وخمسمائة ودفن في ذلك الموضع [1] » .

وذكره ابن الفوطي في الملقبين بفخر الدين إلا ان اسمه ولقبه سقطا من الجزء المخزون في المكتبة الظاهرية بدمشق ، فعرفتها من سيرته الباقية في كتاب ابن الفوطي ، قال : « ذكره شيخنا تاج الدين علي بن أنجب في تاريخه وقال : كان فقيهاً محدثاً مؤرخاً مفسراً وجمع وصنف ورسم كتاباً سماه (ديوان الاسلام) ذكر في خطبته انه قسمه ثلاثمائة وستين كتاباً وطول تطويلاً يضيق العمر عنه ، لاجرم لم يتم [2] ... » . وقال زكي الدين المنذري المصري : « وذكر أنه سمع من أقوام لم يدركهم [3] » .

وذكره الذهبي في تاريخه الكبير ونقل من كتب عدة عن شيوخ ثقات أخبار تزويره وتدليسه ونهيهم عن الرواية عنه ، منها « قال ابن نقطة : حدثني علي بن احمد الزيدي أن ابن المارستانية استعار منه (مغازي الأموي) فردّها وقد طبق عليها السماع على كل جزء ، ولم يسمعها [4] » ، يعني انه كتب اسمه بين السامعين لها على أحد رواتها الاثبات مع أنه لم يسمعها .

وذكر ابن رجب نقلاً من مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي أنه « صنف كتاباً سماه ديوان الاسلام في تاريخ دار السلام ، قسمه ثلاثمائة وستين كتاباً إلا انه لم يشتهر » . ونقل من تاريخ ابن القادسي أن له تاريخ مدينة السلام على وضع كتاب الخطيب وهو

---

(١) التاريخ المجدد لمدينة السلام « جزء المجمع العلمي المصور ، و ١٠٠ » .

(٢) تلخيص مجمع الآداب « ج ٤ القسم ٢ ص ٢٢٦ » .

(٣) التكملة لوفيات النقلة « الجزء المصور في المجمع العلمي و ٤٦ » ،

(٤) تاريخ الاسلام « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٨٢ و ١١٨ ، ١١٩ » .

كتاب نفيس، وقد ذكر فيه اقواما ، ذكر أنهم لايعرفون وقد عظمهم هو ووصفهم[1] » .
وقد انتصر له ابن رجب بسبب المذهب . واختصر اقواله ابن العماد في شذرات الذهب « ٤ : ٣٤٠ » .

وفذلكة القول ان ابن المارستانية لم يؤلف ذيلاً على تاريخ ابن النجار وان تاريخه لم يتم ولم يخرج ، الا قسم منه ، وهو عرضة للطعن والشك . وقد مضى إزراء ابن النجار عليه .

وأما تاريخ ابن القطيعي فلم يكن ذيلاً على تاريخ ابن الدبيثي ، لأنهما كانا متعاصرين وانما كان ذيلاً على تاريخ السمعاني الذي هو ذيل على تاريخ الخطيب ، قال ابن رجب « محمد ابن احمد بن عمر بن الحسين بن خلف البغدادي القطيعي الأزجي المؤرخ أبو الحسن بن ابي العباس ، وقد سبق ذكر أبيه[2] . ولد في رجب سنة ست واربعين وخمسمائة ، وبكّر به والده واسمعه ... ثم طلب هو بنفسه وسمع من جماعة بعد هؤلاء وقرأ على الشيوخ وكتب بخطه ورحل ... وجمع تاريخاً في نحو خمسة أسفار ذيل به على تاريخ ابي سعد بن السمعاني ، سماه (درّة الاكليل في تتمة التذييل) رأيت أكثره بخطه وقد نقلت منه في هذا الكتاب كثيراً وفيه فوائد جمة مع أوهام واغلاط ، وقد بالغ ابن النجار في الحط على تاريخه هذا مع انه اخذ عنه واستفاد منه ونقل منه في تاريخه اشياء كثيرة ، بل نقله كله ، وقال : لم يكن محققاً فيما ينقله ويقوله ، وكان لُحَنَةً ، قليل المعرفة بأسماء الرجال ... ولما عمّر المستنصر مدرسته المعروفة به جعل القطيعي شيخ دار الحديث بها وكان ابن النجار بها مفيداً للطلبة وهذا من جملة الأسباب التي أوجبت تحامله عليه ... قال ابن النجار : توفي ليلة السبت لأربع خلون من ربيع الآخر سنة أربع وثلاثين وستمائة وصلي عليه من الغد

(١) ذيل طبقات الحنابلة « ١ : ٤٤٣ ، ٤٤٦ طبعة مطبعة السنة » .
(٢) ذيل طبقات الحنابلة « ١ : ٣٠١ » .

بعدة مواضع ودفن بباب حرب - رح - [1] ... » . وقال زكي الدين المنذري في وفيات سنة ٦٣٤ : « وجمع تاريخاً للبغداديين وحدث وهو آخر من حدث ببغداد بصحيح البخاري كاملاً عن أبي الوقت سماعاً وتفرّد بالرواية عن غير واحد وهو منسوب الى قطيعة باب الأزج [2] المعروفة بقطيعة العجم [3] ... » .

وقال الصفدي : « وكان قد ذيل على كتاب التاريخ الذي عمله أبو سعد ابن السمعاني وأذهب عمره فيه ، قال ابن النجار : وطالعته فرأيت فيه من الغلط والوهم والتصحيف والتحريف كثيراً أوقفته على وجه الصواب فيه فلم يفهمه وقد نقلت عنه اشياء ونسبتها اليه ، ولا يطمئن قلبي اليها والعهدة عليه فيما قاله ، فانه لم يكن محققاً فيما ينقله ويقوله - عفا الله عنا وعنه [4] - » . ونقل هذا الكلام شمس الدين الذهبي ثم نقله من كتابه ابن حجر العسقلاني ، ثم قال نقلاً من تاريخ ابن النجار : « سمعت عبد العزيز بن دُلف [5] يقول غير مرة : سمعت الوزير أبا المظفر [عبيد الله] بن يونس يقول لأبي الحسن القطيعي : ويلك عمرك تقرأ الحديث ولا تحسن أن تقرأ حديثاً واحداً صحيحاً » .

وترجم له ابن العماد في الشذرات مرتين الأولى باسم « أبي الحسن احمد بن محمد » وهو خطأ واختصر كلام ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة على عادته في تراجم الحنابلة ، قال : « وجمع تاريخاً في نحو خمسة اسفار ذيل به على تاريخ ابن السمعاني سماه (درة الاكليل في تتمة التذييل) وفيه فوائد جمة مع اوهام [6] » . ثم ترجم له في الصفحة ١٦٨ بإيجاز بالاضافة [7] الى الترجمة الاولى وقال : « ضعفه ابن النجار لعدم إتقانه وكثرة اوهامه [8] » .

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة « ٢ : ٢١٢ ، ٢١٣ » .
(٢) هي أرض مقبرة الغزالي الحالية بشرقي بغداد وما حولها .
(٣) التكملة لوفيات النقلة « نسخة مكتبة البلدية بالاسكندرية ١٩٨٢ د ج ٢ ص ١٩٤ » .
(٤) الوافي بالوفيات « ٢ : ١٣٠ » .
(٥) في لسان الميزان « ٥ : ٤٧ » دلق وهو تصحيف .
(٦) الشذرات « ٥ : ١٦٢ » .
(٧) أي بالنسبة لا بمعنى « زيادة على » .
(٨) الشذرات « ٥ : ١٠٨ » .

وقال أبو زكريا يحيى بن أبي بكر العامري الحرضي في حوادث سنة ٦٣٤ : « وفيها توفي أبو الحسن المؤرخ وهو محمد بن أحمد البغدادي المحدث ، أخذ الوعظ عن ابن الجوزي وهو آخر من حدث بالبخاري سماعاً عن أبي الوقت السجزي وضعفه ابن النجار[١] » . وترجم له ابن الدبيثي وان لم يذكر وفاته لأن تاريخه في نشرته الثانية انتهى بسنة ٦٢١ قال : « محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن خلف القطيعي أبو الحسن منسوب الى قطيعة باب الازج وتعرف بقطيعة العجم ، بكّر به والده وأسمعه في صغره ... وجمع تاريخاً لبغداد لم أقف عليه . سمعت منه اكثر صحيح البخاري وشيئاً عن أبي بكر الزاغوني[٢] » ، وأما كون تقي الدين بن رافع قد توفي سنة ٦٧٤ هـ فليس بصواب لان وفاته كانت في سنة ٧٧٤ هـ[٣] وهذا من السهو في النقل أو السرعة في الكتابة .

٢ — وجاء في الصفحة « ٢٠ » من المجلة في المقالة المذكورة ذكر الحسن بن محمد السكوني ومراجع ترجمته وقد فات الدكتور الفاضل ذكر لسان الميزان « ٢ : ٢٥١ » ففيه ترجمة له على وجه الجرح بالبداهة ، فالرجل قد تناوله لسان الميزان .

٣ — وجاء في الصفحة ٢٣ « أما إسماعيل بن علي الخطبي (٢٦٩ ـ ٣٥٠) فقد ترجم له [الخطيب] في الجزء السادس[٤] (ص٢ ـ ٥) وذكر انه « صنف تاريخاً كبيراً على السنين ، وقد ذكر ابن النديم هذا الكتاب (ص ٢٤٢) ويبدو ان النقل جاء من هذا الكتاب » . قلت : وترجم له ياقوت الحموي في معجم الادباء ووقع في تاريخ وفاته فيه تصحيف فصارت سنة ٢٦٩ . وذكره أبو سعد السمعاني في « الخطبي » من الأنساب[٥] وأبو الفرج بن الجوزي في المنتظم « ٧ : ٥ » وكلا الاخيرين اختصر كلام الخطيب ،

---

(١) غربال الزمان ق وفيات الأعيان « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٩٣ و ١٨١ .

(٢) ذيل تاريخ بغداد « نسخة دار الكتب المذكورة ٥٩٢١ و ٢٠ » .

(٣) الدرر الكامنة « ٣ : ٤٤٠ » .

(٤) الصواب « ج ٦ س ٣٠٥ ، ٣٠٦ » .

(٥) الأنساب في مادة « الخطبي » .

والحق يقال ، ومن المهم في هـــذا الأمر ان جزءاً من كتاب « مختصر تاريخ الخلفاء » للخطي المذكور محفوظ في دار كتب كوبنهاكن بالدانيمارك وترقيمه بين الكتب العربية « ٨٥ » واخرى في ايطالية . وقد جاء في الفهرست للتي بكوبنهاكن ما هذا نصه :

الجزء الأول من كتاب مختصر تاريخ الخلفاء ، تأليف أبي محمد اسماعيل بن علي بن اسماعيل الخطبي ، رواية أبي القاسم عبيد الله بن عثمان بن يحيي ابن جنيقا عنه ، رواية أبي الحسين محمد بن أحمد بن محمد ابن علي الآبنوسي عنه ، رواية أبي غالب أحمد بن الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البناء عنه ، رواية أبي العز عبد المغيث [1] بن زهير بن زهير الحربي عنه ، قرأه عليّ بحق سماعي على الشيخ أبي غالب أحمد بن الحسن بن البناء : الشيخ الجليل العالم أبو محمد إبراهيم ابن الشيخ الجليل الفقيه أبي الحسن علي بن محمد بن المبارك ابن بكروس ـ بلّغه الله محابّه ـ وكتب عبد المغيث بن زهير بن زهير ـ عفا الله عنه ـ قرأ الكتاب وأجزت له أن يروي عني جميع ما تجوز روايته من سائر العلوم وما أجاز لي أشياخي على الشرط المعروف بين أهل العلم في ذلك . الحمـــد لله وصلواته على سيدنا محمد وآله أبداً ، والكتاب من نسخته : أربعة أجزاء وهي في الأصل جزءان ... قال المؤلف : هذا كتاب مختصر من كتاب تاريخ الخلفاء وتاريخ أوقاتهم ومُددهم وأعمارهم وأنسابهم وصفاتهم ، مجرّداً دون سيرهم وأخبارهم وأعوانهم فان ذلك في الكتاب الكبير مرسوم ، وأسقطته ها هنا ليقرب تناوله ، ويسهل حفظه ، وقـــد ذكرت في آخره ولاة العهود الذين لم يلوا الأمر ومن يجري مجراهم ممّن رشح للأمر ولم يبلغه . باب من ظهر من الطالبيّين وبويع له بالخلافة في دولة العباسيين » .

ومن الأمور المستغربة أن هذا الجزء الذي هو من أقدم ما ألّف في التاريخ لم يصوّره

(١) من الرواة المشهورين المذكورين في أعيان الحنابلة ، توفي سنة ٥٨٣ كما جاء في حوادث هـــذه السنة من كامل ابن الاثير قال مؤلفه : وصنّف كتاباً في فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالعجائب وقد رد عليه أبو الفرج بن الجوزي وكان بينهما عداوة » . قلت : والرد موجود محفوظ في عدد من خزائن الكتب وعنوانه « الرد على المتعصب العنيد المانع من ذم يزيد » .

العرب إلى الآن ، وقد وقفتُ على وصفه بالاتفاق - أعني بالصدفة - فأرجو ممن وُكلت اليهم أمور الثقافة العربية والتراث الاسلامي أن يسعَوا تصويره وطبعه وإن كان مختصراً من تاريخه الكبير .

٤ — وأما ما يستدرك على الدكتور الفاضل من الكتب التي تناولت خطط بغداد ف « خلاصة الذهب المسبوك » المختصر من سير الملوك ، تأليف عبد الرحمن الاربلي المعروف بسبط قنيتو المتوفى سنة ٧١٧ فقد ذكر أولاً صلاح موضع بغداد للبناء والسكنى ، واستطرد الى ذكر الأقاليم وأن إقليم بغداد وهو الرابع صفوة الارض ووسطها وأن العراق مركز العلم ثم ذكر ارتياد المنصور موضعاً لمدينة جديدة ، وأسطورة مقلاص المشهورة ، وموضع بغداد الاقتصادي وموضعها الحربي وحشره الصناع والفعلة وأهل الهندسة وأمره باختطاط المدينة وحفر الأساس بحسب الطالع وضرب اللبن وطبخ الآجرّ ومحاولته نقض القصر الأبيض الكسروي بالمدائن وإعراضه عن ذلك وذكر سور المدينة وخندقها ومساحتها ومقدار النفقة عليها وما في أسواقها من اللبن ، وذكر أبوابها الأربعة وما بينهنّ من المسافات وما على كل منها من مجاس ودرج وقبة وقواد الأبواب وحُرّاسها وأبراج السور والقبة الخضراء التي في قصره : قصر الذهب ، ثم تطرق الى ذكر حمامات بغداد ومساجدها ، ومدح بغداد بالشعر [1] . وأكثر ما ينقل هذا المؤلف إنما هو من تاريخ ابن الساعي .

ومنها كتاب « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » فقد ذكر ابن تغري بردي ارتياد المنصور موضعاً لمدينته الجديدة واسطورة مقلاص وجمع الصناع والفعلة والمهندسين والحكماء والعلماء ورسم المدينة وما كانت عليه قبل البناء ومساحة المدينة والمادة التي بنيت بها وأبوابها وبروجها وسورَيها والجامع والقصر وقبته الخضراء ، وذرع بغداد عن الصولي عن أحمد بن ابي طاهر طيفور وعن غيره ، وعن ابن أبي طاهر حماماتها ومساجدها

(١) خلاصة الذهب المسبوك « ص ٧٢ - ٧٧ طبعة مكتبة المثنى » .

وحماماتها أيضاً عن هلال ابن الصابي ، وبغداد الجديدة ، نقل ذلك كله عن الذهبي [1] .

ولا أجد بأساً في ذكر مسالك الاصطخري فقد ذكر إنشاء المنصور لبغداد بالجانب الغربي وإقطاعه القطائع ومعسكر المهدي بالرصافة وزيادة عمران بغداد وانتقال الخلافة - يعني دارها - الى الجانب الشرقي ونشوء حريم دار الخلافة وقصورها وبساتينها وامتداد ذلك الى نهر بين من الشرق والى الشماسية من الشمال ، وما يحاذيها من الجانب الغربي كالحربية الى الجنوب حتى الكرخ ، وذكر جانب الطاق والرصافة وموضع السوق الأعظم وقصر الرشيد بقرب جامع الرصافة ، وجوامع بغداد الثلاثة جامع المنصور وجامع المهدي وجامع دار الخلافة ، واتصال عمارة بغداد بكلواذا ، وذكر جسري بغداد ، وعمارة الكرخ وكونها مركز التجارة والأنهار والبساتين بالجانب الشرقي وسقي النهروان وتامرا بفروعه ذلك الجانب ، وعدم ارتفاع ماء دجلة إليه إلا بالدواليب وذكر الجانب الغربي والأنهار التي تتخلله من فروع الفرات الرواضع كنهر عيسى والصراة [2] . وهذا من المباحث الضرورية لمعرفة تطور الخطط البغدادية الذي أراده الدكتور الفاضل ، واعتدّه لازما لمعرفة أدوار الخطط وأطوارها .

هذا ما أردت تبيانه وأختم كلامي بتكرار شكري للدكتور الزميل المحقق صالح على تعريضه بالكتابات غير العلميـة في الخطط والحضارة ، وتجديه لنتائجها المسيئة الى التاريخ العلمي الحديث ، كأن يتحدث الكاتب على لسان رحالة في القرن الثاني للهجرة فيصف البصرة سنة ١٥٦ ويستشهد بشعر ابن أبي عيينة من أهل القرن الثالث للهجرة [3] ويصف قصر الأحنف بن قيس من أهل القرن الأول للهجرة وهو في القرن الثاني منها ، أو البيضاء دار عبيد الله بن زياد وهو في القرن الثاني أيضا [4] ، ويجعل كلواذا قبل المدائن

---

(١) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة « ١ - ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ » .

(٢) مسالك الممالك ، الاصطخري « ص ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ » .

(٣) حضارة الاسلام في دار السلام « ص ٧ » .

(٤) المرجع المذكور « ص ٧ أيضاً » .

للمصعد من البصرة إلى بغداد ويسمي « المأصر » أي سلسلة الكرك « الماطر [1] » ، ويُلبسُ أبا جعفر المنصور من أهل القرن الثاني ملبس الخليفة الناصر لدين الله في القرن السادس [2] ، ويصف خطيب القرن الثاني بوصف خطيب القرن السادس [3] ، وينسب إلى السيدة زبيدة زوج الرشيد أنّها أمرت بصنع بساط من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من الذهب وأعينها من يواقيت وجواهر ، يقال إنها أنفقت عليه نحواً من ألف ألف دينار (كذا) » ويقول في الحاشية محيلاً على المستطرف مرجعه ١ : ٩٨ إن أم المستعين هي التي صنعته [4] ، فيقال له إن كانت تلك صوراً فكيف تكون الأطيار من ذهب والعيون من يواقيت وجواهر ؟ ! ولنحسب أن صُور الأطيار نُسِجَت من خيوط ذَهَبٍ فما بال العُيون اليواقيت والجواهر ؟

والصحيح أنّ أم المستعين عملت « قلاّية » [5] ، ذكر أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل عن أحمد بن حمدون أن أم الخليفة المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم عملت قلاّية لم يبق شيء حسن إلا جعلته فيها وأنفقت عليها مائـة ألف دينار وثلاثين ألف دينار ، وسألته أن يقف عليها ، قال أحمد بن حمدون فقال لي المستعين ولأترجّة الهاشمي : اذهبا فانظرا إليها وصِفاها . فمضينا فرأيناها ، فما رأينا في الدنيا شيئا حسنا إلا وقد عمل فيها ، ومددت أنا يدي إلى غزال من ذهب مُلِيء عنبراً وعيناه حبتا جوهر وعليه سرج ولجام وركاب من ذهب فأخذته ووضعته في كمي [6] ... » إلى آخر الخبر الطريف ، فصارت القلية عند مؤلف المستطرف « بساطا » . وجاء مؤرخ الحضارة فنقل الخبر على علته وخروجه عن حدود الامكان والواقع . ووصف هذا المؤرخ أهل بغداد في القرن الثاني بأوصاف

---

(١) المذكور « ص ١٩ » .

(٢) المذكور « ص ٢٣ » .

(٣) « ص ٢٤ » .

(٤) « ص ٩٥ » .

(٥) القلاية كالقلية وهي الصومعة ،

(٦) أوائل أبي هلال العسكري « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٥٩٨٦ و ١٠٠ » وانما وضعه في كمه لأن الجيب الذي نعرفه لم يكن معروفاً أيامئذ .

أهلها في القرن السادس أيام الفتوة والفخر والعدل والاستسعاد [1] ، وما أحسن قول الدكتور الفاضل : « ثم إن التكوين الاجتماعي والاقتصادي لأية مدينة يتبدل بمرور الزمن ويرافقه تبدل الخطط [2] » ثم قوله : « فاذا كانت لدراسة خطط بغداد أهمية كبيرة فان على الباحث الاهتمام بالتطور التاريخي لهذه الخطط وتحديد أماكنها وخططها في زمن معين لأن الخطط تتطور فتتسع أو تضيق أو تتبدل فيها مواضع الأسواق ومراكز اللهو أو السكن ، فلا بد لهذه الدراسة من تحديد زمن المصدر أو الكتاب الذي يصف خطط المدينة وبيان أن وصف الخطط في ذلك المصدر ينطبق على زمان المؤلف وتمييز ذلك عما نقله ممن سبقه [3] » .

فكثير من الباحثين يجهلون هذه الحقائق ويعدون الخطط ثابتة لا تتغير ويعتدون الزمان واحداً لا يتبدّل ، مثال ذلك أن كثيراً من الناس ما يزالون يعدون شرقي بغداد « الرصافة » وكانت من محال الحنابلة ، وغربي بغداد « الكرخ » وكان من محال الشيعة ، مع أنهما كانتا محلتين مُسوّرتين محدودتين بعيدتين عن الموضعين اللذين يذكرونهما لهما .

مصطفى جواد

(١) حضارة الاسلام « ص ٩٧ » .

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي « ص ٤ »

(٣) المرجع المذكور « ص ٦ » .